

# الولاية الصوفية\*

د. سعاد الحكيم

تقف أقدامنا على شواطئ بعار الولاية ، يطول بها مقام التردد بين المجاهدة والمسألة ، ولا يلبث أن يجبسها عن الذهاب خوف الفناء والذهاب ، وما تسمع عن الغرق في لجج التوحيد ، فنسترخي متعبة على رمال السلامة ، ونرضى من العلم بما يلوح عن بُعد ٠٠ تتلامح في الأفق البعيد أطراف ، نحدّق بجهدٍ مشتاق علّنا نجد وجهاً يعرفنا ، وجهاً يُطمئننا على مصير السالكين ، وعسانا نعبر - بفضل الله - مسافات الأحوال والقواطع ، على طريق النداء المستقيم الواصل من عينيه إلينا ٠٠٠

هذه الوجوه التي تتلامح في آفاق الأزمنة والأمكنة ، والتي تُساكننا وعيونها غيابة وحضور ، وطرفها أحنّته أثقال شهود تخطى الوجود ، وعلى أبدانها تنطق خلع الولاية ٠٠ نراها بالعرفان متنعمة ونحن جميعاً بهاحيارى ٠٠ من هو الولي ؟ ما وظيفته في الكون ؟ ولماذا بعد أن ختم الله عز وجل النبوة أوجد الأولياء ؟ ألا يكفي وجود النبي (ﷺ) في حياة الانسان المسلم ، فما ضرورة وجود الولي ؟ كل هذه الأسئلة يطرحها وجود الولي في مجتمعنا وجمعنا المسلم ، ونحن فيها حيارى ٠٠ نمد أيدينا الى المكتبة الاسلامية عامة والصوفية خاصة ، ونأمل أن نحظى بجواب يطمئن العقل الحائر والوجدان السائل ، ولكن عبثاً ٠٠ وأسباب ذلك كثيرة ويمكن تلخيص واقع الولاية بـعالم ثلاثة نتوقف عندها فيما سيأتي .

ان الولي الذي تبدلت أرضه غير الأرض ، واستمر يعيش حياته معنا كأنه هو ، صمت منه اللسان فكتم سر ولايته عن الآخرين ، فالولاية عنده ليست استعراضية ، والولي

★ بعث يتناول بالعرض والتعليل والتعقيب كتاب « خاتم الأولياء : النبوة والولاية في مذهب ابن عربي الفكري » تأليف

الأستاذ ميشال شودكوفيتش ، نشر كاليمار ، باريس ١٩٨٦ .

\* Le Sceau des saints: Prophétie et sainteté dans la doctrine d'Ibn Arabi, Par Michel Chodkiewicz, éditions Gallimard, Paris 1986.

على عكس الساحر لا يقدم للمشاهد فنون الكرامة .. ولكن للقرب الالهي وللعطاء الرباني علامات ان كتمها اللسان فضحها الوجه والبدن ، فالأولياء سيماهم في وجوههم . تشهد ايديهم وأرجلهم بما يكتمون من القرب .. شهادات يراها الرفيق والصاحب والعشير .. باختصار الولي باطنه عبودية وعجز تام كامل ومظهره قدرة تشوش الناظرين .

ونتج عن سكوت الولي وامتناعه عن تأكيد ولايته التي هي هويته الروحية بين أهل الله ، أن امتنعت معرفة الولاية من داخل وأنها محض عبودية ، ولكن حيث ان المراقب والصاحب والسالك لم يمنعه سكوت الولي عن ولايته من السؤال ، تكاثرت الأسئلة عن الولاية ومعناها وعن الولي وهويته ؛ ونظراً لما يكنه الناس من احترام للأولياء فلم يطرح أحد من الناس على أحد من الأولياء سؤالاً مباشراً ، مثلاً لم يقل أحد لولي : هل انت من أولياء الله ؟ واستمر الناس على عقيدتهم في الأولياء ، بولثون من تتلامح على ظاهره علامات القرب ، ويربطون بين الولاية وبين هذه الوجوه من خارج من المظهر ، وأخذت تتكون النظريات من نتف جمل التقطها السائل .. ولكن الأهم منها هو كتابات الصوفيين الذين تكرر سوا أولياء في نظر محيطهم ، عن مشاهداتهم وفتوحاتهم .. وهنا أيضاً تصادفنا مشكلة أخرى ، فبالإضافة الى أن الصوفي يحتاج دائماً الى ترجمان ينقل نصه من لغة الوجدان الى لغة الناس ، فمفهوم الولاية نفسه تعرض للذبذبة التي تعرض لها مفهوم الصوفي ، فكما عرف كل صوفي التصوف بحسب علمه وتجربته كذلك يعرف كل معرف الولي والولاية بحسب موقعه منها ومرتبته ..

كل ذلك جعل الولاية الصوفية مشروخة بين ثلاثة عوالم : عالم أهل الله ، وهو عالم الأولياء الذين يعيشون الولاية ويشفقون من أحمالها ، وعالم الباحثين والمؤلفين والكتبة الحافظين الذين يتتبعون مظاهر الولاية في النصوص والأشخاص ، ليرسموا منها نظرية يتوافق فيها الفقه والتصوف والعقل الانساني ، وعالم العامة الذين علّقوا عيونهم على وجوه الصالحين وتتبعوا أقوالهم وأفعالهم يرصدون ظهور علامات الولاية عليهم ..

وتظل الولاية سرّاً بين الولي وبين من ولاه سبحانه ، يحتفظ الأولياء بسر الولاية يعيشون عبوديتهم الخالصة ، يضمنون بهذه المعرفة على غير أهلها .. ويحتفظ الباحثون بمظاهرها يلملمون النصوص التي تثبت شرعية وعقلية الخوارق والكرامات والعلوم الدنيوية الالهامية ، ويتحول الكتاب الى محاولة اقناع بالولاية ، وبوجود أولياء الله مقربين من دون الكون .. ويحتفظ العامة بكل الخرافات والأوهام والحقائق التي تزينها لهم عقولهم عن عالم غيبي مغيب ، عالم رجال خوارق تقطع مسافات تمشي في الهواء وعلى الماء ، تنفعل لها الأشياء وتطيعها الحيوانات .. وبين هذه العوالم الثلاثة : عالم الأولياء الحقيقي ، وعالم الباحثين النظري ، وعالم العوام الموهوم المزخرف بتقديس الانسان ، تقوم مسافات لا تقطع ، برازخ لم يلامسها كاتب أو انسان .. وجاء كتاب الأستاذ شودكوفيتش ليردم هذه المسافات بين واقع عبودية الأولياء وبين تنظير مظاهر الباحثين ، وبين خيال العوام وخرافاتهم وتوهماتهم .. باختصار كتاب الأستاذ شودكوفيتش يقرب أجزاء صورة الولاية بعضها من بعض ، يقرب ظاهر الولي [ = قدرة ، علم ، الجانب الالهي

من الصورة] ، من باطنه [= عبودية ، عجز ، الجانب الانساني من الصورة] ، حتى تتجلى حقيقته على مقدارها للباحثين .

وقبل أن نستعرض كتاب الأستاذ شودكوفيتش فصلاً فصلاً ، نقف على امتداد فصوله العشرة ، لنلقي عليها نظرة واحدة شاملة جامعة ، نظرة ترى المخطط غير المكتوب الذي اتبعه المؤلف .

لقد بدأ في الفصل الأول بدراسة مفرد « ولي » و « ولاية » لغوياً ، ليرى أولاً أنه اسم مشترك بين مسميين أحدهما سلبي بمعنى الولاء لله ، وثانيهما ايجابي بمعنى الإدارة والامارة .

وليرى ثانياً أن اسم ولي هو أيضاً مشترك بين الانسان وبين الله : فالانسان ولي ، والله ولي . .

ثم في الفصل الثاني والثالث والرابع والخامس ، يبين شودكوفيتش أن الولاية معناها القرب ، ولكن هؤلاء المقربين أي الاولياء ليسوا على مظهر واحد ، وليست لهم شخصية واحدة ، بل العكس نرى أن كل ولي يظهر بشخصية وعلم وعمل وحال تختلف عن غيره من الاولياء ، ويرجع سبب اختلاف شخصيات الاولياء الى اختلاف شخصيات الانبياء ، فالولي هو في الحقيقة وارث لنبي من الانبياء يرث عنه نمط العلم والعمل والحال . . ثم في الفصل السادس والسابع يبين شودكوفيتش أن هؤلاء المقربين الاولياء الذين ورثوا شخصيتهم في الولاية عن نبي من الانبياء لا يعيشون على هامش الكون ، بل يأخذ كل منهم مكانه ومنزله ويباشر منه مهامه . ويعده شودكوفيتش في هذين الفصلين منازل الاولياء وتوزعهم على اركان الأرض وأبراج السماء . .

وفي الفصل الثامن والتاسع يبين شودكوفيتش أنه يتبع عن ختم النبوة أن تختتم الولاية أيضاً لأنها ارث نبوي ، ثم يرسم دوائر الولاية وأختامها ، فالولاية المحمدية قد ختمت بشخص لم تقطع النصوص بهويته ، وبقي أن تختتم الولاية العامة بشخص عيسى (عليه السلام) الذي يظهر في اخر الزمان ، ويليهِ ختم ثالث هو خاتم الأولاد يولد في الصين وبعده يرتفع الايمان والعلم من قلوب الناس وتسرع الدنيا نحو الزوال . . ثم في الفصل العاشر والآخر يبين شودكوفيتش للناس طريق الولاية المفتوح ، ولاية يحفها التعب والمخاطر بشهادة الواصلين والسالكين . . ونقول انه مهما كان التعب كبيراً فالولاية هي انسانية الانسان ، هي استمرار جنسه الراقي واستمرار الدنيا ، لذلك نشمر من كتاب شودكوفيتش بأن الولاية هي الأمانة التي على الجنس البشري أن يحملها طوعاً أو كرهاً ، وان الصوفية هم الذين تقدموا ليحملوا أمانة الدنيا واستمرارها .

وأحب هنا قبل أن أبدأ عرضي لكتاب الأستاذ شودكوفيتش أن أقف عند بعض الملاحظات حول الكاتب والكتاب .

## □ ملاحظات حول الكاتب والكتاب :

نبدأ بأن نلفت النظر الى كمية النصوص الصوفية العربية المترجمة الى الفرنسية، وهي نصوص تصعب حتى على فأريء العربية، فلا نملك الا ان نمجّب بفربي يدخل الى روح اللغة العربية، يترجم نصوصها ترجمة توضح النص الأصلي المبهّم أحياناً ، ويظل أميناً على النصوص .. وليس هذا بمستغرب من انسان صوفي تثقفت أعماقه وارتقت مداركه مع معلم كبير هو الشيخ محيي الدين بن عربي ..

● سيطر على طرح الولاية عند الأقدمين والمحدثين بعض المواضيع التي أخذت تتكرر في كل بحث عن الولاية .. فكل من أراد أن يؤلف في الولاية يبدأ بفصل عن الولي وقواه الخارقة ، ثم يشني بالدفاع عن امكانية وجود والي شرعاً ثم عقلاً ، ويرجع الى القرآن والحديث والصحابة ليبين أن الولاية موجودة منذ البدايات ، وان الكرامات غير مستبعدة شرعاً وعقلاً .. باختصار كل الدراسات التي اهتمت بالولاية انحصرت تقريباً بالدفاع عنها أو بمهاجمتها وفي كل الأحوال ظلت تنظر للولاية من خارج، تعتبرها مظاهر تظهر في علم لدني وفي كرامات وخوارق .. لذلك فهذه المرة الأولى التي نجد فيها بحثاً في الولاية يفارق هذا الطرح الذي أضحي تقليداً ويدخل الى عمق هذا المفهوم يحلل معناه ، يبين هوية الولي ودوره في الكون ، ويرتب عالم الروح والفعل .. ونسجل هنا اكبارنا لانسان خرج بطرح الولاية عن التقليد الذي سيطر عليه قرونًا طويلة .. قد يقول الأستاذ شوكوفيتش تواضعاً : انه ليس هو الذي خرج بطرح الولاية عن التقليد المتبع بل ابن عربي هو الذي خرج عن التقليد .. نعم قد يكون هذا صحيحاً ، ولكن قرونًا سبعة تفصلنا عن ابن عربي ولم يرَ أحد الولاية عنده على هذا الكمال ، ولم يفكر باحث أن يخرج بنظرته الى ابن عربي عن التقليد المتبع في طرح الولاية ...

● تتبع الأستاذ شوكوفيتش مفهوم الولاية عبر تحقيقه في الأولياء ، وحاول أن يخلّص معنى الولاية من تجربة الأولياء الشخصية ، فرجع الى النصوص الأصلية التي سجلت مشاهداتهم وأحوالهم وعلومهم .. كل ذلك يجعل الكتاب جديداً في نمطه اذ جرى التقليد أن يتبع ألباحث مفهوم الولاية عبر التنظير السابق ، ولكن شوكوفيتش هنا ترك التنظير وما كتب عن الولاية ليتلمس نظرية يؤلفها بنفسه ويستقيها من حياة الأولياء ، فتجربة الولي الشخصية وان كانت لا تتكرر أبداً الا أنها تضيف ملامح جديدة الى صورة الولي .. هذه الصورة التي كانت تتحدد تقاطيعها مع نصوص الأولياء .

● ان كان الولي عند الكلاباذي في « التعرف » محفوظاً من النظر الى نفسه ، ومن آفات البشرية ، فقد توسع الباحثون في دائرة هذا الحفظ وتفننوا في اخراج الولي ليس من آفات البشرية بل من البشرية نفسها، وكانت النتيجة أنه كلما انقطع الولي عن علائقه الدنيوية وفارق دائرة عواطفه البشرية تكرر ولياً في نظر الباحثين والناس .. والولي - في نظر السوي - هو انسان بدنه أرضي وروحه سماوية ، أباح جسمه لمن أراد جلوسه وحبيب قلبه في الفؤاد أنيسه ، انسان يعيش دون عواطف انسانية ودون مشاعر

بشرية لأن كل عواطفه ومشاعره مستلبة بالحب الالهي ، انسان فوق الحب الانساني ، فوق مشاعر الأبوة والحنان .. ولعلنا هنا لأول مرة ، نقف متعاطفين مع صورة الولي كما ترسمها النصوص التي اختارها شودكوفيتش ، ووظفها أحسن توظيف ، فالولي هو انسان أولاً وآخراً ، انسان يشعر ، يحب ، وهو في أعلى درجات القرب يتقطع قلبه على طفله المحموم .. وشودكوفيتش هو أول من ألقى الضوء على انسانية الولي ، وكل من سبقه من الدارسين اهتم بخوارق الولي وبمظاهر الآلوهية المتجلية فيه وجعله مفارقاً لعالم البشرية ، وكأن كل شعور بشري هو نقص وعلائق وسقوط يجرح علوه ومقامه .. ونحن هنا نتابع شودكوفيتش في نظريته الى انسانية الولي ، والفرق كبير بين أن يرقى الانسان بمشاعره وعواطفه من آفات البشرية الى آفاق الانسانية ، وبين أن يفارقها بالكلية .. فالولي كما يؤكد شودكوفيتش بحق في آخر كتابه : ان الولي هو القريب من الله ، القريب من الناس .

● ان الولي هو القريب من الله ، القريب من الناس .. وهذا القرب من الناس هو امتداد لقرب الأنبياء من الناس على علوم كانتهم عند الله ، فالأنبياء وهم السلالة المختارة من الجنس البشري ، عاشت مع الناس وظلت قريبة منهم ، تحقق الوصل بين الأرض والسماء .. وليس للنبي وللولي من بعد أن يعتزل قومه ، ويفارق الجمع لما له من دور ووظيفة ، فموسى عليه السلام حين خلف قومه وراءه وترك فيهم أخاه هارون وعجل الى ربه ليرضى ، أضل السامري قومه .. فالنبي يكون من الناس قريباً ، والولي يتابع هذا الدور لأنه الوريث والنائب ، يحمل أعباء شريعة النبي ويعيش مع الناس قريباً منهم ، ليحقق اتصال الأرض بالسماء ، واتصال التابعين بالمتبوع .. ويبين شودكوفيتش أن الولي يؤكد النبوة ويتابع دوره في البنية الدينية للمجتمع المؤمن .

● نحن في زمن يتعرض فيه وجه الاسلام للكثير من التحريف والتشويه ، لقد أمسك أعداء الاسلام بمرآة مقعرة الأعماق والجوانب ، تعكس الوجه على أشنع صورة ، وتتوالى التهم : الاسلام دموي .. ارهابي .. تصادمي .. تطرف .. تعصب .. شودكوفيتش هنا يصحح الرؤية ويكشف عن انفتاح الدين الاسلامي على الأديان الأخرى ، مؤكداً أن الدين الاسلامي هو الشريعة الكاملة والنهائية التي أفسحت فيها مكاناً لكل الشرائع السابقة ، وأن النبي ( ﷺ ) هو النموذج الانساني الكامل ، صاحب الرسالة العامة ، أرسل رحمة للعالمين ، وجمع في شخصه كل ما يطلبه انسان من نبي .

وأخيراً ، نقول ، ان كتاب « خاتم الأولياء » يعرف العالم الغربي على وجه من الاسلام تغيّبه وسائل الاعلام والاغراض ، وان الروح تحقق لقاءً كونياً فوق مصالح المادة وتنازع السياسة .. ومن المفيد جداً أن يطّلع قراء العربية على نتائج الغرب في الاسلاميات وخاصة الدراسات الموثوقة والموضوعية والتي تشهد كل يوم أكثر على كمال الاسلام ومقدرته على تلبينه التحديات الحياتية .

## ● عرض الكتاب :

قسم الأستاذ شودكوفيتش كتابه الى مقدمة وعشرة فصول ، نتناول كل قسم بما يتناسب من التفصيل :

## المقدمة : « ص ص ١٣ - ٢٧ »

بدأ شودكوفيتش مقدمته مع مطالع ابن عربي على العالم الغربي ، وكانت البداية مع كتابه : اصطلاحات الصوفية ، ترجمة غوستاف فلوغيل وبعدها ترجم له نيكلسون ديوان ترجمان الأشواق ، وتوالت بعد ذلك أعمال نيبرغ وآسين بالاسيوس ، ثم جاءت سنوات بعد الحرب حاملة المزيد من النشر والترجمة والدراسة وبرزت أسماء أمثال هنري كوربان وتشهيكوايزاتسو . . . ويشير شودكوفيتش الى التضارب الذي برز حول شخصية ابن عربي في العالم الغربي وذلك كما ورد في كتابات ماسينيون وكليمانت هيوارت وكارادوفو .

ولكن ابن عربي الذي جمع في شخصه الولاية الى العبقرية وجمع في مؤلفاته العلوم المتنوعة الى ضروب أشكالها ، يفوق في نتاجه وشخصه ما كتب عنه . . . وظلت كل الدراسات جزئية وغير قادرة على الاحاطة به ، فلم يحصره كاتب ولم يعرف حقيقة وجهه باحث .

ثم ينتقل شودكوفيتش الى الكلام على حياة ابن عربي ، وعلى أهميته الشخصية كصوفي ، وعلى أهمية صوفيته كذلك وأثرها على الأعمال التي قدمها وخاصة الفتوحات . ثم تكلم على موقف العالم الاسلامي من الولاية والأولياء ، ومن مظاهر تقديس العوام لهم . ليخلص الى أن التصوف والولاية لا يفترقان ، فالتصوف يوجد ويتغذى ويستمر في حياة الناس من مفهوم الولاية ومن وجود الأولياء ، بل وظيفة التصوف تكمن في أنه يساعد على ظهور الأولياء ، وأن يكون السماء التي يرتفع فيها نجم هداية الأولياء ، والصوفي يشعر بأن عليه أن يعطي صورة الولي ويعكس كل كمالات التقى للناس . . . ومن جهة ثانية فان بنية المجتمع الاسلامي . أو بالأحرى التجمع الديني تقوم على خاصة هم الأولياء العلماء الحقيقيون ، وعلى عامة هم شعب يستقطبهم قطب الولي .

وعلى الرغم من أن ابن عربي كان مسبقاً بكتّاب وصوفية تناولوا موضوع الولاية ، فهو أول من قدم فيها نظرية شاملة ، وتتبع صورها الموروثة من شخصيات أنبياء الأديان كافة : ولي موسوي ، ولي عيسوي ، ولي ابراهيمي . .

وحيث أن العمل في ابن عربي شامل وصعب ، لذلك يرى شودكوفيتش انه من الأفضل أن يركز على نصوصه خطوة خطوة ، وبطريقة مخلصة ، حتى يصل الى توضيح رؤيته .

## الفصل الأول :

« اسم مشترك ص ص ٢٩ - ٣٩ »

يبدأ الاستاذ شودكوفيتش الفصل الأول بايراد بعض رؤى منامية لابن عربي يرى فيها الأنبياء عليهم السلام بمفردهم أو هم وأتباعهم . ومن هذه الرؤى تظهر مكانة ابن عربي الروحية ويظهر له كذلك أن ابن عربي يرى منذ البداية أن الأولياء لا يتفصلون

عن الأنبياء مطلقاً ، وإن الولاية لا تستقل أبداً عن النبوة بل تتبعها دائماً فالولي هو على قدم نبي يتبعه في العلم والعمل والحال . وهذه الرؤى يؤيدها كلام تلميذه صدرالدين القانوني الذي كان يقول انه في طاقة أستاذه أن يجتمع بروح من يشاء من الأولياء السابقين الراحلين : وهذا كتاب التجليات لابن عربي شاهد على هذه اللقاءات .

ينتج من كل ما تقدم أن رؤية ابن عربي للولاية ليست نظرية تقوم على عدم التناقض الفكري وليست أيضاً مستقاة من النصوص الإسلامية كآية نظرية دينية أخرى ، بل هي تدوين لواقع معاش يجد مصدره في تجربة شخصية وذوق وعيان .

هذه الفتوحات الربانية التي ألهمت ابن عربي مباشرة وغير مباشرة . . الاملاء الالهي . . وتوالي شهادات الغيب على صفحة كتبه ، ثم صعوبة التقاط مذهبه بكل تدرجاته وشموله . . كل ذلك يفسر جزئياً الهجوم العنيف الذي تعرض له ابن عربي ونظريته في الولاية والباقي أكمله القن السبيء والفهم الخاطيء .

يخصص شودكوفيتش هذا الفصل للبحث معنى ولي كما وردت في معاجم اللغة ، يرجع الى الجذر ويرى ان ولي تطلق على معنيين : الولي هو الصديق والقريب والتابع والمحِب ، والموالة ضد المعادة . والولي أيضاً هو المدبر والنصير من الادارة والامارة والحكم والخلافة . فبالمعنى الأول الولاية هي الولاء لله وبالمعنى الثاني الولي هو الذي يتولى أموراً ويأخذ على عاتقه شريعة ، مثلاً الولي المحمدي لا يعطي شريعة ولكن يأخذ على عاتقه الشريعة المحمدية وهكذا .

ثم يبين شودكوفيتش ان الأصل العربي « ولي » لا يمكن ترجمته بكلمة مناسبة في الديانات الأخرى وبالتالي في اللغات الأخرى ، لأن شكل القداسة في كل ديانة يباين شكلها في الفكر الاسلامي واللغة تدوين للفكر ليسر الا . . فالقديس مثلاً Le Saint من الأصل العربي قدس ويعبر عن فكرة الطهارة ولا يعطي معنى الولاية وهكذا . .

ومن حيث الوزن تقرأ ولاية بالفتح وبالكسر . الولاية بالكسر على وزن الفعل الولاية ، بمعنى عمل الولي أي امارته ( وكل ما كان من جنس الصناعة فهو مكسور كخيطة وقصارة ) ، وعلى وزن فعالة بالفتح ولاية وهي حال الولي ، ولاؤه لله . . ولكن كثيراً من الكتابات الصوفية تتردد بين ولاية بالفتح وولاية بالكسر ، واللغة المحكية تجنح الى الكسر ولاية ، أما الكاتب فيتابع ابن عربي في تفضيل ولاية بالفتح لانسجامها مع اللغة القرآنية .

وهكذا يتقرر لديه أن الولاية هي اسم مشترك بين مسميين بين من له حال الولاية وبين من له وظيفة الولاية .

والولي كذلك هو اسم مشترك بين الله وبين الانسان : فالولي هو أحد الأسماء الالهية وهو أيضاً اسم يطلق على الانسان . . « الله ولي الذين آمنوا ، ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . .

ويحصر اللغويون المسلمون أمر هذا الاشتراك بوجهين: « اسم مفعول » يتبع مفهوم النسب والولاء و « اسم فاعل » يتبع مفهوم الخلافة والامارة .

هذا وينبه شوكوفيتش الى أن كل مفردات ومعاني الولي والولاية تنبع من القرآن وترجع اليه ، وأنها تجد بيانها في أحاديث مشهورة لعل أهمها :

« من أذى لي ولياً فقد أذنته بالحرب . وما تقرب اليّ عبدي بشيء أفضل من أداء ما افترضت عليه . وما يزال عبدي يتقرب اليّ بالنوافل حتى أحبه . فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها » و « ربّ أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبره » .

والعل من المفيد هنا أن أعقب على هذا الاشتقاق الاسمي بأفضل ما سمعت في هذا الموضوع ، وهو على ايجازه الصوفي يرضي اللغويين ، سألت مرة سيدي الفضل بن العباس ، « أمير الأسرة الدندراوية » من هو الولي ؟ فقال : اسم يطلق على من تولاه الله ، وعلى من ولاه الله .

### الفصل الثاني :

« من يراك يراني ، ص ص ٤١-٤٦ »

في هذا الفصل يرجع شوكوفيتش الى بدايات ظهور الولاية كمفرد ومفهوم في النصوص الصوفية ، ويتتبع تاريخ هذه الفكرة وتطورها عند المسلمين وصولاً الى ابن عربي : متى ظهر مفرد ولي ، كيف تحدد معنى الولاية عند المؤيدين والمعارضين ، ما حدود الاضافة التي شارك بها كل مفكر أو باحث أو ولي في صورة الولاية . . ويتأكد لديه أن مسمى الولي الذي يتشاطره الاشتراك المبيّن في الفصل الأول أدى الى شطر تاريخ الولاية بأكمله نصفين ، كل نصف قيّد معنى الولاية بمفهوم وحصره فيه : فبعض الدارسين الاسلاميين ومن بينهم أئمة حصروا معنى الولاية في المسمى الأول ، أي ان الولي هو المؤمن عامة وكل مؤمن ولي ، ولم يرتضوا معنى التولية وان لم يحاربوا أو يناهضوا الكرامات وخرق العادة والعلوم الالهامية ، والبعض الثاني وان قبل معنى الولاية في المسمى الأول الا أنه اعتبر أن صفة الايمان التي تعم كل المؤمنين لا ينطبق عليها التخصيص المراد بالولاية والمشار اليه في الأحاديث المشهورة من أذى لي ولياً . . ربّ أشعث أغبر . . وهكذا يستعرض شوكوفيتش تاريخ فكرة الولاية وقبلة أنظاره هذا الانقسام ، وأنا أسميها مجازاً : الولاية السلفية والولاية الصوفية .

يبدأ بأبن تيمية ، الذي يرى أن الاولياء هم المقربون فقط ، أي ينظر الى الولاية بالمعنى الأول ، فالولي عنده هو الذي تقدم في الصلاح حتى أصبح من أوائل الصالحين . والقرآن يسميهم بالسابقين الذين هم أعلى من أهل اليمين وأهل الشمال .

والجرجاني في التعريفات يعرف الولاية بأنها القرب من الله ويميز بين ولاية بالفتح وولاية بالكسر وأنهما يقابلان حال الولي ووظيفة الولي .



أما ابن عجيبة في القرن الثامن عشر الميلادي فيجعل الولاية تقابل الأنس بالله .. وكثيراً ما كان ابن عربي يؤكد على قضية النصر في الولاية ، ويرى أن الولي والأولياء هم الذين تولاهم الله بنصرتهم ، تولاهم في محاربتهم أعداءهم الأربعة : النفس ، والهوى ، والدينا ، والشيطان .

ولكن بعد هذه اللمحة السريعة مع ابن تيمية والجرجاني وابن عجيبة وابن عربي يقف شوكوفيتش ليقول أن هذه النصوص كلها متأخرة ، ماذا كانت البداية في بدايات الإسلام ؟ كما حدث مع مفرد صوفي ، إذ سبق وجود الصوفي وجود اسمه ، كذلك في الولاية سبق وجود الولي وجود اسم الولاية .. وبحسب الهجويري يرجع وجود الولي والولاية في اللغة الصوفية إلى الحكيم الترمذي (القرن التاسع الميلادي) الذي توالى كتبه حاملة اسمها : « علم الأولياء ، ختم الأولياء ، سيرة الأولياء » فالترمذي يعد أول صوفي بيّن معالم الولاية وطرح مشاكلها ومسائلها وهذا يفسر المكانة التي احتلتها مؤلفاته في كتابات ابن عربي في الموضوع نفسه .

ثم يتناول شوكوفيتش كتاب « ختم الولاية » مشيراً إلى أن الترمذي في هذا النص كتب تجربته الروحية على الرغم من تستر وراء حجب اللغة الموضوعية واللهجة اللاشخصية .

يفرق الترمذي بين طريقين للولاية : طريق الصدق والجهد والعبادة ، وطريق المنة والوهاب والعبودية ، وهذان الطريقان على تداخلهما يشيران إلى مرتبتين من مراتب الحياة الروحية ، أي مرتبتين من مراتب الولاية : مرتبة « ولي حق الله » ومرتبة « ولي الله حقاً » .

الولاية الأولى يحصلها السالك بسيره في الطريق الأول وهو ممارسة الصدق ، فالصدق أول خطوة في الولاية ، وهو يفرض التنفيذ الكامل لكل الفروض الداخلية والخارجية المترتبة عن العهد الإلهية ، صدق العهد مع الله ، باختصار صدق العبادة والولاية الثانية ينالها المؤمن بالوهاب والمنة الإلهية وتتصف بصدق العبودية .

إن عبارة « حق الله » على المخلوقات توهم بحق المخلوقات على الخالق ، لذلك فإن « ولي حق الله » هو الذي تظهر ولايته في خدمته للحقوق الإلهية وهي :

[أداء الفروض - حفظ الجوارح - الصبر على الشهوات - التوكل في الرزق] ، يعطي ليأخذ ، يعطي صدق العبادة فيأخذ ، يمن الله عليه ويعطيه طريقاً أعلى في الولاية ، يرقى إلى أن يكون .. « ولي الله حقاً » يجاهد المؤمن نفسه في عبادة الله فتتوالى عليه أنوار العطاءات الربانية فإن لم يقف عندها خلصه الله عز وجل لعبوديته وحرره من كل شيء ورقاه في درجات الولاية وأنزله محل قربه .. وهذا الولي وإن كان لا يطلب المعاوضة بالخدمة إلا أن عبوديته المطلقة هي مساحة أعماقه التي تحررت من كل شيء وامتألت بالحضور الإلهي .. لذلك نجد أن أهم صفات الولاية الصادقة عند الترمذي هي تنزل السكينة على الولي ، أي الحضور الإلهي .. فالولي الفارغ عن كل شيء الممتلئ بالحضور الإلهي ينمكس هذا الحضور

من باطنه الى ظاهره ويصبح أحد المظاهر الخارجية التي يُعرف الأولياء بها وهي المشار إليها في الحديث الشريف بأن الأولياء هم الذين تذكرنا رؤيتهم بالله (را۰ السيوطي - الفتح الكبير - ٢١٤/١) .

وينتقل شوكوفيتش الى السؤال الذي يطرح في كل نظرية روحية في الاسلام : ما هي العلاقة بين الولي وبين النبي أو الرسول؟ هذا الموضوع بالذات وقد أشار اليه الترمذي في رسالة « بدء الشأن » هو الذي أثار عليه ثورة الفقهاء ، يرى الترمذي أن نبوة الأنبياء ورسالة الرسل لهما نهاية وحد في هذه الدنيا، وتتوافق نهايتهما مع نهاية العالم ورجوع مخلوقاته الى خالقها في يوم الفصل العظيم ، وعلى العكس من ذلك تستمر صفة الولاية أبدية ، وهذا ما يفسر أن الولي هو أحد الأسماء الالهية . وهذا الكلام لا يعني أن الولي أفضل من النبي أو الرسول ، ولكن صفة الولاية في شخص الرسول أو النبي نفسه تستمر أبدية على حين أن فعل رسالته أو نبوته ينتهيان بانتهاء العالم .

وبعد أن عرض شوكوفيتش للولاية عند الحكيم الترمذي يتساءل عن معنى « ختم الأولياء » الذي عنون به الترمذي كتابه ؟ هنا - يقول شوكوفيتش - كان علينا أن ننظر ابن عربي حتى نعرف ونفهم ماهية الختم وهويته . ذلك أن الاشارات التي تلامحت عند الترمذي أمثال قوله أن ختم الأولياء هوجة الله على الأولياء أو أنه سيد الأولياء وحكيم الحكماء لا توضح شيئاً . ويبقى أن الحكيم الترمذي أورد مجموعة أسئلة كانت تحدياً للمدعين ، تحدياً لمن يتكلم كالأولياء وليس منهم ، هذه الأسئلة المئة والسبعة والخمسون ظلت تنتظر دون جواب زمن ابن عربي الذي رفع التحدي وأجاب في الفتوحات عن الأسئلة جميعها (ف ٢/٤٠-١٣٨) ، وأهم هذه الأسئلة : كم عدد منازل الأولياء ؟ أين منازل أهل القرية ؟ من الذي يستحق خاتم الأولياء كما يستحق محمد (ﷺ) خاتم النبوة ؟ ما سبب الخاتم وما معناه ؟ أين مقام الأنبياء من الأولياء ؟ ما سكينه الأولياء ؟ ..

وكان من نتيجة طرح الترمذي للولاية وختمها وللعلاقة بين النبوة والرسالة والولاية بشخص الرسول أو النبي أن تناول كل الباحثين بعده مفهوم الولاية بالحدود الشديد . . . . . وها هو الباقلاني (القرن العاشر الميلادي) وإن كان خصص كتاباً للبحث في الفرق بين معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء إلا أنه اكتفى بأن يقف من الولاية عند حدود التأكيد على امكانية الكرامات والخوارق في مقابل المعتزلة . وعرف الأولياء بأنهم الصالحون فقط .

وإن التفتنا ناحية الصوفيين ، لا نكاد نجدهم يخصصون بحثاً يتناول صراحة الولاية والأولياء ، بل يستترون بأسماء كالعارف والصوفي ، وإن ظهرت أبحاث في الولاية لا تلبث أن تختفي بسرعة كما لاحظ الهجويري . وإذا قلبنا صفحات الكتب الكبرى في التصوف والتي ألفها كتّاب يعرفون على أنهم أولياء ، لا نراها أكثر إفصاحاً ، ويعرض شوكوفيتش أهم هذه الكتب ومؤلفيها :

■ أبو طالب المكي (ت ٣٩٠ هـ) في فصل من كتابه « قوت القلوب » يتكلم على أهل المقامات من المقربين ويفرق بين ثلاثة أنواع من الأولياء : أهل العلم بالله ، أهل الحب ، أهل الخوف .

■ أبو نصر السراج (ت ٣٧٧ هـ) في كتابه اللمع وعلى الرغم من أنه يخصص فصلاً يحدّر فيه القارئ ممن يضع الأولياء أعلى من الأنبياء ، وفصلاً آخر للكرامات الأولياء إلا أننا نحاول عبثاً أن نستشف عرضاً أكثر عمقاً لمفهوم الولاية .

■ الكلاباذي (ت ٣٨٥ هـ) في كتابه التعرف يفرد فصلاً للكرامات ويدافع عن امكانيتها وشرعيتها ويرى أن ظهور الكرامة هو تأييد للنبوة وعلى السؤال الذي طرح على الترمذي من أحد تلامذته : هل يعرف الولي أنه ولي؟ يجيب بالإيجاب . ويفرّق بين نوعين من الولاية : الولاية في معناها العام وتشمل كل المؤمنين ، وفي معناها الخاص الذي تأخذه في الاصطلاح الصوفي هي عطاء مخصوص من أعطيه كان محفوظاً من النظر الى نفسه ومن آفات البشرية .

ويتابع شوكوفيتش مع كتّاب متأخرين نوعاً ما عن الذين ذكرهم ، فالسلمي (ت ٤١٢ هـ) في مقدمة كتابه طبقات الصوفية يرى أن الأولياء هم أتباع الأنبياء يخلفونهم في سننهم . ولكننا لا نجد السلمي عند بحثه لشخصياته يتابع هذه اللمحة بل العكس فأننا لا نكاد نجد هذه الشخصيات تخرج عن الأسئلة التقليدية : الكرامة ، هل يعرف الولي أنه ولي . .

وبعد طبقات السلمي يأخذ شوكوفيتش كتاب « حلية الأولياء » لأبي نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠ هـ) ويرى أنه يتركنا على جوعنا ، وعطشى لا نرتوي على الرغم من عنوانه ، وأجزائه التي تبلغ العشرة وتضم أكثر من ستمائة وتسع وثمانين ترجمة . . ولكننا نستطيع من خلال اشاراته ، وقليلًا قليلًا ، أن نرسم صورة للولي وأن نقارب نمطية الأولياء ، ولكن جوهر الولاية ينفلت عن كل تعريف . . وحصيلة ما يبقى لدينا بعد قراءة الحلية ينتظم تحت مقولات : الأولياء يذكرون بالله ، الأولياء محفوظون من الفتنة ، الأولياء فقراء ، زهاد ، قوم خالط القرآن لحومهم ودماءهم ، بحسب قول ذي النون المصري ، ثم ان الولاية ليست استعراضية ، بل العكس فان الولي يتحاشى الظهور .

وبعد الحلية يأخذ شوكوفيتش رسالة القشيري (ت ٤٦٥ هـ) حيث تأخذ الولاية فصلاً كاملاً : « باب الولاية » ، ولكن نجد أننا نقف أمام نفس السدود ، نفس الحذر ، ويشير القشيري الى أن « اسم ولي » له معنيان : أحدهما سلبي ، فعيل ، بمعنى مفعول ، وهو من يتولى الله سبحانه أمره . قال الله تعالى : « وهو يتولى الصالحين » فلا يكله الى نفسه لحظة بل يتولى الحق سبحانه ، رعايته ، والمعنى الثاني ايجابي ، فعيل مبالغة من الفاعل ، وهو الذي يتولى عبادة الله تعالى وطاعته فعبادته تجري على التوالي من غير أن يتخللها عصيان ، وكلا الوصفين واجب حتى يكون الولي ولياً . . ومن شرط الولاية أن يكون الولي محفوظاً كما أنه من شرط النبي أن يكون معصوماً ، ويتابع القشيري مع الحوار الصوفي حول معرفة الولي بأنه ولي ويعقب القشيري على معنى الولاية بأقوال ، أهمها ما ينقله عن السلمي : نهايات الأولياء بدايات الأنبياء ، وقول أبي علي الجوزجاني : الولي هو الفاني في حاله ، ويخلص القشيري الى القول بأن الولي هو ابن وقته ليس له مستقبل فيخاف شيئاً وكما لا خوف له فلا رجاء له لأن الرجاء انتظار وكذلك لا حزن له . .

ثم يفرد القشيري باباً خاصاً للكلام على كرامات الأولياء دون أن يقدم جديداً يذكر ، أما اذا اتجهنا الى الكتاب الذي فسر فيه القشيري القرآن « لطائف الاشارات » ، فنرى أن القشيري يفرق بين « معصوم » و « محفوظ » : عصمة النبي تكمن في أنه لا يجد في نفسه الرغبة في معصية ، أما الولي فانه ليس في ملجأ عن الاغراء ، ويمكن أن يضعف أحياناً للغواية ، ولكن المنّة الالهية تحفظه من الاصرار على الخطأ .

وبعد القشيري ، يرى شودكوفيتش أن عبدالله الانصاري (ت ٤٨١ هـ) ، لم يقدم جديداً في كتبه المعروفة لدينا ، والأمر كذلك بالنسبة للغزالي (ت ٥٠٥ هـ) الذي انتقد في « الاحياء » من ينكر كرامات الأولياء .

وهكذا يظل معنى الولاية مستوراً خلف صورها ومظاهرها وعلاماتها، وهذا ما سنجده أيضاً عند نجم الدين كبري (ت ٦١٧ هـ) في كتابه « فوائج الجمال » : من علامات الولي أن يكون محفوظاً ، مقبول الدعوة من الله عز وجل وأن يعرف اسم الله الأعظم وأسماء الجن والملائكة الخ ...

والولاية عند كبري هي الدرجة الثالثة والأخيرة من الحياة الروحية ، وتتوالى عنده الثلاثيات المرتبة تدريجياً :

— العبادة — العبودية — العبودة .

— علم اليقين المكتسب — حق اليقين الذي هو حال مستمر — عين اليقين التي هي فناء العارف في المعروف .

— التلوين — التمكين — التكوين وهو يعطى لمن فنيت ارادته الذاتية فناءً كاملاً في الارادة الالهية . ويرى كبري أن مسلك السالك لا يصل الى الولاية الا عندما يُعطى « كن » وهي كلمة التكوين .

ويرى شودكوفيتش أنه وان كان كبري لا يعطينا المنطق العقلي لكل المقولات التي يطرحها في الولاية الا أننا تقدمنا معه قليلاً في معرفة الولاية ، ويمكن أن تكون المعرفة أكبر لو أراد أن يفصح ، اذ ان المشاهدات التي يرويها في كتبه تكشف عن علمه الوافي بهذا الموضوع .

وهكذا تظل الولاية اشكالية ، وسؤالاً يطرح على كل عالم أو ولي يظهر ويلمع أمام العامة أو الخاصة ، ولكن جاءت اجاباتهم غامضة مبهمة المعاني لم يفك خزائن رموزها الا نصوص ابن عربي . ومن أبرز وجوه تلك الفترة ، عبد القادر الجيلاني ، توفي في بغداد عام ٥٦١ هـ ، وهو نفس الوقت الذي ولد فيه ابن عربي في الأندلس ، يكتفي الجيلاني بالقول : ان الولاية هي ظل النبوة .

وينتهي شودكوفيتش هذا الفصل بالكلام على نظرية الولاية عند معلم روحي كبير هو روزبهان بقلي توفي عام ٦٠٦ هـ ، أي بعد وصول ابن عربي الى الشرق ، وروزبهان في كتابه « مشرب الأرواح » المستوحى من كتاب الانصاري « منازل السائرين » يفرد فصلاً

عن الولاية ، يرى فيه أن أول الطريق ارادة وهي مصحوبة بالمجاهدات ، ووسط الطريق محبة وهي مصحوبة بالكرامات، وآخر الطريق معرفة وهي مصحوبة بالمشاهدات .

وعندما يكون المرء متمكناً من هذه الدرجات الثلاث ، لا يجري عليه تلوين ، ويسبح في بحار التوحيد وأسرار التفريد ٠٠٠ عندها يكون ولياً ، نائب الأنبياء ، صادقاً بين الطاهرين ٠٠ ويورد شوكوفيتش من كتاب روزبهان « كشف الأسرار » بعض المقاطع التي تروي تجربة الولاية عنده ٠٠ مقاطع يخاطب فيها الحق روزبهان ، نصوص تروي توليته واختياره للولاية وللمحبة ٠٠

ويروي روزبهان « أنه مرة كان يجلس ليلاً قرب ابنه أحمد الذي يشتكي حمى ، وقلبه يكاد يذوب قلقاً ، ثم فجأة شهد الجمال الالهي ، فقال له : ربي ، لم لا تكلمني كما كلمت موسى ؟ فأجابه : ألا يكفيك أن من يحبك فقد أحبني وان من يراك يراني » .

وهكذا في هذا الفصل ردم شوكوفيتش المسافة بين بداية الكلام على الولاية مع الترمذي وبين نهايته وختمه مع ابن عربي ٠٠ قرون ثلاثة في الأبحاث الموضوعية والمشاهدات الذاتية وكلها تدور حول الولاية ، وقد تناولها شوكوفيتش بالدراسة والتحليل محاولاً الوصول الى تعريف للولاية لحدودها وبنيتها قبل ابن عربي ولكن دون جدوى ، لذلك يرى أن مفهوم الولاية كان عليه أن ينتظر ابن عربي حتى يتحدد ٠٠

### الفصل الثالث :

( دائرة الولاية ص ص ٦٥ - ٧٨ )

في هذا الفصل سوف يحدد شوكوفيتش تدريجياً طبيعة الولاية عند ابن عربي ودورها وأشكالها . ويبدأ بأن يلفت النظر الى أن مذهب ابن عربي في الولاية مضمن تحت أسماء كثيرة - الى جانب اسم الولي - أهمها: العارف، المحقق ، الملامي ، الوريث ، الصوفي ، العبد، الرجل . لذلك سوف يستفيد أولاً من نصوص الولاية والأولياء ويكمل صورته من النصوص التي وردت تحت أسماء أخرى . وأهم نص في الولاية هو كتاب « فصوص الحكم » الذي يتألف من مقدمة وسبعة وعشرين فصلاً يرجع كل فصل فيها الى نبي من الأنبياء ، الأول هو آدم والآخر هو محمد ﷺ . ويلاحظ شوكوفيتش أن ترتيب الفصول المتعلقة بالأنبياء لا يتبع التوالي التاريخي : فالفصل المخصص لعيسى يسبق المخصص لسليمان الذي بدوره يسبق الفصل المخصص لداود عليهم السلام ، ويلاحظ أيضاً أن شخصيتين من هذه الشخصيات السبع والعشرين وهما شيث وخالد بن سنان لم يردا في القرآن ، على حين أن نبيين مذكورين في القرآن هما ذو الكفل واليسع لا يوجدان في كتاب ابن عربي ، ويلاحظ أيضاً أن لقمان الذي يعطى اسمه لأحد فصول الفصوص هو في الواقع - قرانياً ، حكيم أكثر منه نبياً .

ويفيدنا كتاب فصوص الحكم أيضاً في استخلاص بنية الولاية الصوفية ومعرفة تنوع شخصيات الأولياء ، وذلك من خلال الأنماط الروحية التي يبرزها كل فص من الفصوص،

ففي كل فص من الفصوص نجد نمطاً روحياً يتحدد بالتقاء وجه من وجوه الحكمة الالهية مع القابل الانساني الذي يحويها ويفرض عليها بالتالي شروطه الانسانية . كل نمط روحي هو التقاء المطلق الالهي أي الحكمة الالهية بالمحدد الانساني أي بالكلمة .

ثم ينتقل شوكوفيتش الى بيان الظروف التي دفعت ابن عربي الى نشر فصوص الحكم فابن عربي مع أنه ليس برسول ولا بنبي الا انه وارث يكتب املاء الهياً .

وفي الفصل المتعلق بعزير يعطي ابن عربي نصوصاً واشارات هامة الى علاقة انبوة بالولاية ، يقول : « اعلم أن الولاية هي الفلك المحيط العام ، ولهذا لم تنقطع . أما نبوة التشريع والرسالة فمنقطعة ، وفي محمد ﷺ قد انقطعت ، فلا نبي بعده : يعني مشترعاً أو مشرعاً له ، ولا رسول وهو المشرع . وهذا الحديث قسم ظهور أولياء الله لأنه يتضمن انقطاع ذوق العبودية الكاملة التامة » . وهكذا بعد انقطاع النبوة امتنعت العبودية الكاملة التامة على الأولياء وبقي لهم أن يقتسموا ارث العلوم والأفعال والأحوال ، وهكذا فان العلماء المشار اليهم في الحديث : « العلماء ورثة الأنبياء » ينطبق بالأصالة على الأولياء ، فالأولياء ، هم ورثة الأنبياء .

ثم يقارب ابن عربي موضوعاً طرحه الترمذي قبله ، ويتلخص بأن ولاية النبي أو الرسول أعلى من نبوته أو رسالته ، يقول ابن عربي : « فاذا رأيت النبي يتكلم خارج عن التشريع فمن حيث هو ولي عارف ، ولهذا مقامه من حيث هو عالم أتم من حيث هو رسول أو ذو تشريع وشرع . فاذا سمعت أحداً من أهل الله يقول أو ينقل اليك عنه أنه قال الولاية أعلى من النبوة ، فليس يريد ذلك القائل إلا ما ذكرناه . لا أن الولي التابع له (= النبي ) أعلى منه ، فان التابع لا يدرك المتبوع أبداً فيما هو تابع له فيه . فرجع الرسول والنبي المشرع الى الولاية والعلم » ( فصوص ١/ ١٣٤ - ١٣٥ ) .

ينتج مما تقدم عدة نتائج يرى شوكوفيتش أنه من الصعب التوفيق بينها ظاهرياً ، ويتركها دون تعليق ، فمن جهة تظهر الولاية شاملة للنبوة والرسالة وهي أعلى في الشخص الذي يجمع هذه الصفات الثلاث ، ومن جهة ثانية نرى الأولياء تابعين للأنبياء وارثين لهم ، وبالتالي النبوة أعلى من الولاية . . . وان لم نستطع أن نوافق بين النتائج المتقدمة الا انه تقرر الآن أن الولاية هي الارث النبوي أو ان الولي هو الوارث لنبي مع ملاحظة انه لا ينال أحد كمال الارث والا لأصبح نبياً ، فالنبوة والولاية تشتركان بثلاثة أشياء : العلم ، والفعل بالهمة ، ورؤية عالم الخيال بالحس ، وتختلفان : بالخطاب الالهي ، ولعله من أهم نصوص ابن عربي في هذا المجال هو عشرة فصول متتابعة من الفتوحات ( من الفصل ١٥٢ الى ١٦٢ ) ، حيث يرسم دوائر الولاية والنبوة والرسالة ويبين العلاقة بينها ، وينتهي هذا البحث بفصل عن « مقام القربة » الذي يمثل كمال الولاية وأعلى مراتبها .

وهكذا تتحدد طبيعة الولاية عند ابن عربي على أنها قربة ، ويتحدد شكلها بفعل الوراثة الموجود بين الولي الوارث والنبي الموروث ، ولكن كل ولي وارث لنبي فانه لا يرثه مباشرة وانما من حيث الحقيقة المحمدية ، لذلك كل ولي هو ولي محمدي بشكل من الأشكال وهذا دفع شوكوفيتش الى التوقف عند الحقيقة المحمدية ومكانتها الوجودية في الفصل التالي .

## الفصل الرابع :

( الحقيقة المحمدية ص ص ٧٩-٩٤ )

كل وارث من نبي من الأنبياء ، هو دائماً وارث من محمد ﷺ ، ويقول ابن عربي في الفتوحات أن كل الأنبياء الذين تقدموا في الزمان على محمد ﷺ هم نوابه في عالم الخلق وهو لا يزال روحاً مجرداً ونوراً مسوياً . .

قيل له : متى كنت نبياً ؟ فقال : كنت نبياً وآدم بين الماء والطين . . الى أن وصل زمان ظهور جسده المطهر ﷺ فلم يبق حكم لنائب من نوابه .

يقول شوكوفيتش ان نص ابن عربي هذا مع كثير غيره ، يحدد طبيعة الحقيقة المحمدية ودورها ، وعلى الرغم من أن الحديث الوارد في النص قد تعرض لكثير من الهجوم واتهم بالبدعة الا أن جمهور المحدثين انقسموا فيه بين مؤيدين ومعارضين ، وابن عربي نفسه وهو دارس للحديث ، يقول في عدة مناسبات ان الكشف وحده فقط هو القادر على القطع بصحة الحديث .

ثم يبين شوكوفيتش ان عبارة الحقيقة المحمدية تجد جذورها القرآنية في عبارة النور المحمدي المستوحاة من قوله تعالى : « سراجاً منيراً » وان فكرة النور المحمدي لها أصول في كتب السيرة نجدها فيما يروى عن النور الذي كان بين عيني والده عبدالله ورأته سيدة عشية زواجه بأمنة ، وفارق عندما رأته ثانية صبيحة اليوم الثاني ، انه نور النبوة المنتقل في الأضلاب والأرحام .

ويشير شوكوفيتش الى الصوفيين الذين أكدوا أسبقية النور المحمدي في الظهور على كافة المخلوقات كجعفر الصادق وسهل التستري ، والحكيم الترمذي والحلاج . . والى ارتباط الحقيقة المحمدية بعبارة مفهوم الانسان الكامل الذي هو هدف كل حياة روحية وغاية كل تعريف للولاية ، وينتج عن كل ما يورده شوكوفيتش أن ولاية الولي ليست الا انتسابه الى ولاية النبي .

وهذه الوراثة عن محمد ﷺ يمكن أن تكون مباشرة أو غير مباشرة كما رأينا ، والورثة المحمديون بالطريق المباشر تظهر عليهم صفات تميزهم عن غيرهم من الأولياء ، أي عن الأولياء الذين لا ينتسبون للوراثة من النبي الا بواسطة غيره من الأنبياء . فالوارث غير المحمدي يرى الناس ولايته بما يظهر على ظاهره من علاماتها كالكرامات والخوارق ، وعلى العكس فان الوارث المحمدي يجهله الناس ولا يعرفه الا النخبة لأن خوارق الطبيعة لا تظهر على ظاهره وانما تنزل في قلبه على هيئة علوم وأحوال روحية . . وهذا التمييز بين ورثة النبي بالطريق غير المباشر وورثته بالطريق المباشر تفيدنا بتحديد صور الأولياء وملامح شخصياتهم .

## الفصل الخامس

( ورثة الأنبياء ص ص ٩٥ - ١١٠ )

ينطلق ابن عربي من أن محمداً ﷺ يحوي كلية الأشكال النبوية ، ويحوي شخصه بالتالي كل المزايا الخصوصية التي لكل واحد منهم ، ففي شخص النبي ﷺ تجتمع كل صفات الأنبياء وفي طاقته ما تحلى به جميعهم من علوم وتصريف والولي الذي هو الوريث الروحي لنبي من الأنبياء يرث من الحقيقة المحمدية الوجه الخاص بالنبي الموروث .

فمن الأولياء من يرث وجه عيسى من الحقيقة المحمدية فيطلق عليه اسم عيسوي ، ومنهم من يرث وجه موسى من الحقيقة المحمدية ويطلق عليه اسم موسوي ، وهذا ابراهيمي وهودي وغيره . .

وابن عربي نفسه يروي أن أستاذه أبا العباس العربي أصبح عيسوياً في آخر حياته، وانه هو نفسه - ابن عربي - على العكس كان عيسوياً في بداياته ثم موسوياً ، ثم هودياً، ثم ورث على التوالي من كل الأنبياء وفي آخر مقام من محمد ﷺ بنفسه .

وهكذا تتكون من مزايا ومعجزات كل نبي نمط شخصيته تظهر صورتها على الولي الوارث ، فالولي العيسوي مثلاً تأتي كراماته على صورة معجزات عيسى عليه السلام فتراه يمشي على الماء ويشفي المريض ويبرئ الأعشى . ويشير شودكوفيتش الى شخصيات معروفة في الوسط الصوفي ويؤكد انها كانت عيسوية الولاية كالحلاج وعين القضاة الحمداني ، تلميذ أحمد الغزالي ، وعبدالله أحرار ، والشيخ العلوي ، كما يشير الى أن أحمد البدوي موسوي هذا وفي استطاعة العارف إن تفرس في أحوال الولي أن يكتشف الطابع النبوي الذي يطبع ظاهره .

ولا تتعدد الأنماط الروحية للولاية الموروثة عن النبوة الى ما لا نهاية بل يحصر ابن عربي صورها الرئيسة في كتاب فصوص الحكم بفصوله السبعة والعشرين . .

وهكذا اختتمت النبوة واكتملت التشريعات ولم يبق الا الوراثة عن الأنبياء ، يقطع السالك طريق الجهد عسى يوليه الله عز وجل ويورثه علماً نبوياً ، فيرث عن نبي أو عن أكثر من نبي .

## الفصل السادس

« الأوتاد الأربعة ص ص ١١١-١٢٧ »

بعد أن درس شودكوفيتش في الفصول السابقة طبيعة الولاية وهوية الولي وأنماط شخصيات الأولياء ينتقل هنا من الطرح النمطي للولاية الى الطرح الجغرافي ، حيث يحتل كل ولي مركزاً جغرافياً من الأرض بحسب مرتبته من الولاية . . لكل ولي منزل، مركز جغرافي يحتله ومنه يباشر وظيفته وولايته .



يبدأ شوكوفيتش بتلمس منازل الأولياء في النصوص السابقة لابن عربي ، ويجد حديثاً شريفاً عند السيوطي عن أبي هريرة . يشير الى سبعة يحفظ الله بهم سكان الأرض . وفي الأدب الصوفي كذلك تتلامح اشارات الى « ديوان الأولياء » ، اشارات لا تزال تنمو الى يومنا هذا ، ويغلب عليها صفة الستر ، فالولي هنا هو مستور لا تظهر مكانته للناس .

ويروي خادم الشيخ عبدالقادر الجيلاني عن قصة طويلة ، يخرج فيها الشيخ عبدالقادر من المدرسة في بغداد الى نهاوند ويصل دون مسافة تذكر ليحضر وفاة أحد الأبدال السبعة .

وهكذا يتابع شوكوفيتش اشارات تظهر وتختفي سريعاً عن أولياء مستورين لهم مهام كونية عالية ويشغلون منازلهم الجغرافية ، كل ولي يحتل منزلة بحسب رتبته . وكما في تحديد مفهوم الولاية وطبيعتها كان علينان ننتظر في التاريخ الصوفي ظهور ابن عربي كذلك هنا لتحديد منازل الأولياء ، ومنازلهم في الأرض ، كان علينا أن ننتظر ابن عربي أيضاً وبعد ابن عربي يصبح لكل الاشارات السابقة في التاريخ الصوفي معنى وتأخذ موقعها من نظرية الولاية ككل .

وابن عربي لا يفصل هذه المنازل نظرياً ، ململاً النصوص الشرعية أو المرويات الشعبية ولكنه يصف هذه المنازل ويصف نازليها وصف الرائي لها العارف بها المشاهد لأهلها ، ففي عام ٥٩٣ هـ مثلاً التقى قطب الوقت في فاس . . . والاشارة الى هذا اللقاء تكثر في كتبه مما يؤيد أن كلام ابن عربي في الولاية ليس نظرية بل يقيناً عياناً يرتكز الى رؤية مباشرة وتجربة حميمة .

وفيما يتعلق بموضوع مراكز الأولياء الذين يمثلون قوى . . « الكون الفاعل » ، لعل النص الأكمل هو ما نجده في بداية الجزء الثاني من الفتوحات ، وهذا النص هو ما سيتخذ شوكوفيتش دليلاً في طريق تحديد عالم الأولياء .

يبدأ ابن عربي الفصل بتحديد أفضلية مقام الرسول على النوع الانساني عامة . . ويمثل الدين بالبيت القائم بقيام أركانه الأربعة ، وأركان بيت الدين الأربعة هي : الرسالة والنبوة والولاية والايمان . والرسالة هي الركن الجامع ، وتحوي الأركان الثلاثة الأخرى . لذلك لا يخلو العالم من رسول حي بجسمه يكون قطب العالم الانساني ، ويقول ابن عربي بأنه بعد وفاة محمد ﷺ أبقى الله عز وجل من الرسل الأحياء بأجسادهم في هذه الدار الدنيا ثلاثة وهم : ادريس والياس وعيسى عليهم السلام ، ادريس عليه السلام بقي حياً بجسده وأسكنه الله السماء الرابعة ، والسموات السبع من الدار الدنيا تبقى ببقائها وتفنى صورتها ببقائها ، لأن الدار الأخرى تبدل فيها السموات والأرض ، أما الياس وعيسى عليهما السلام فقد بقيا في الأرض .

وهذه الشخصيات الثلاث مجمع على رسالتهم ، أما الخضر عليه السلام وهو الرابع فهو من المختلف فيه - كما يقول ابن عربي - عند غيرنا لا عندنا ، فهؤلاء الرسل الأربعة

باقون بأجسامهم في الدار الدنيا ، فكلهم الأوتاد ، واثنان منهم الامامان ، وواحد منهم القطب الذي هو موضوع نظر الحق من العالم ، اذن واحد من هؤلاء الأربعة الذين هم ادريس وعيسى والياس والخضر هو القطب ، وهو أحد أركان بيت الدين ، وهو ركن الحجر الأسود ، واثنان منهم هما الامامان ، وأربعتهم هم الأوتاد ، فبالواحد يحفظ الله الايمان ، وبالثاني يحفظ الله الولاية ، وبالثالث يحفظ الله النبوة ، وبالرابع يحفظ الله الرسالة ، وبالمجموع يحفظ الله الدين الحنيفي . . ولكل واحد من هؤلاء الأربعة من هذه الأمة في كل زمان شخص ولي على قلبه مع وجوده ، هو نائبه .

ويعقب شودكوفيتش بقوله ، ان كانت حياة هذه الشخصيات الأربع التي ذكرها ابن عربي ، اثنان منهم أي ادريس وعيسى ، في السموات واثنان منهم وهما الياس والخضر في الأرض يعيشون مستورين عن أعين العامة الا أنه وللمرة الاولى يشار الى الوظائف العليا لهذه الشخصيات . . وهكذا يعلمنا ابن عربي بوجود الأنبياء الاحياء بأجسامهم في الدنيا وانه بهم يحفظ الله أركان بيت الدين الحنيف ، ثم أعلمنا كذلك بوجود نواب من الأولياء لهؤلاء الأنبياء . . كل ذلك يؤكد علاقة النبوة بالولاية وان دائرة الولاية ليست مستقلة ، ولكنها تابعة الى آخر الزمان لسلطة الأنبياء الاحياء بعد موت محمد ( ﷺ ) .

ثم يتابع شودكوفيتش ابن عربي في تصويره لجغرافية العالم الروحي ، ويتتبع توزيع الأدوار بين هؤلاء الأنبياء الأربعة ، فادريس عليه السلام هو القطب ، والامامان هما عيسى والياس ، والوحد الرابع هو الخضر عليه السلام . القطب عليه يدور الوجود ويجمع في شخصه كل الأحوال ، وكل المقامات ، وهو وجه بلا قفا ، لا يغيب عن نظره شيء ، لا تطوى له الأرض ، ولا يمشي في الهواء أو على الماء ولا يستخدم الا نادراً وبناءً على أمر إلهي القوى الخارقة . . والامامان ، أحدهما أعلى من الثاني ، وهما إمام الشمال الذي يلقب بعبد الرب ، وهو يسهر على « صلاح العالم » وإمام اليمين يلقب بعبد الملك وهو يسهر على « عالم الأرواح » .

وهؤلاء الأوتاد الأربعة : القطب والامامان ورابعهم الوحد ، هم كالجبال للأرض ، وكما الجبل يسكن الأرض فلا تميد ، كذلك هؤلاء الأربعة يحفظ الله بهم الجهات الأربع : الشرق ، الغرب ، الجنوب ، الشمال . .

وينهي شودكوفيتش هذا الفصل بلفتة ابن عربي التحذيرية ، فكل ما يذكره هنا من مقامات الرجال تحت اسم الرجال قد يكون منهم النساء . ويقول في مكان آخر لا توجد صفة روحية يمتلكها الرجل وليس للمرأة فيها مشرب . . ويقول : النساء لها نصيب في كل الدرجات التي ينالها الرجل ، حتى في القطبية .

### الفصل السابع :

( الدجة العليا من الولاية ١٢٩-١٤٣ )

في هذا الفصل يتابع شودكوفيتش تفصيل الرجال ومنازلهم ومراتبهم عند ابن عربي منطلقاً من الباب الثالث والسبعين من الفتوحات ، وفي هذا الباب يعدد ابن عربي

حوالي الثمانين مرتبة من مراتب الرجال الروحانيين من بينها ثلاثون محفوظة برجال يتقيدون في كل زمان بعدد مخصوص . وحيث ان الكاتب لا يمكن أن يفصل كل ما أورد ابن عربي لذلك سيختار من هذه المراتب وهؤلاء الرجال الأهم ، والذين يساهمون في توضيح كلية صورة الولاية .

وبعد الكلام على الأوتاد الأربعة التي سبق تفصيلها في الفصل السابق ، يتابع شوكوفيتش ابن عربي في الكلام على الأبدال وهم سبعة لا يزيدون ولا ينقصون ، يحفظ الله تعالى بهم الأقاليم السبعة ( = الأقاليم المناخية السبعة ) ، وكل بدل على قدم نبي ، الأول على قدم ابراهيم ، والثاني على قدم موسى ، والثالث على قدم هارون ، والرابع على قدم ادريس ، والخامس على قدم يوسف ، والسادس على قدم عيسى ، والسابع على قدم آدم على الكل السلام . وتتأكد هنا مرة جديدة علاقة التبعية التي بين الأولياء والأنبياء ، هناك كل ولي من الأوتاد الأربعة ينوب عن النبي الحي بجسمه ، وهنا كل بدل من الأبدال السبعة على قدم نبي من الأنبياء السبعة ، سكان السموات السبع .

ثم يأتي بعد الأبدال ، النقباء ، وهم اثنا عشر نقيباً في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون على عدد بروج الفلك ، كل نقيب بخاصية كل برج . وبعد النقباء يأتي النجباء وهم ثمانية ، ثم الحواريون وهو واحد في كل زمان ، ثم الرجبيون وهم أربعون شخصاً في كل زمان . ثم تكلم على الأفراد المساوين للقطب في المرتبة والخارجين عن نظره ، ثم على الملامية حتى يصل الى أعلى درجات الولاية وهي مقام القربة عند ابن عربي ، وهنا يؤكد شوكوفيتش على معنى الولاية الصوفية وانها تعني وترادف ، القرب ، فالولاية هي القرب وهذا التعريف للولاية الذي استقاه من كتابات ابن عربي واستوحاه من أعلى مقامات الولاية يتردد أكثر من مرة في هذا الكتاب .

## الفصل الثامن :

( الأختام الثلاثة ص ص ١٤٦-١٥٨ )

بعد أن تتبع شوكوفيتش نصوص ابن عربي وبيّن معنى الولاية وهويتها والأنماط الروحية لشخصياتها من جهة ، ثم من جهة ثانية تكلم على مهام الأولياء الروحية وبيّن ارتباط الأولياء في مهامهم بالأنبياء ، ثم بيّن توزيع الأولياء على منازل تتبع الأرض وجغرافيتها في الجهات والأقاليم كما وردت عند الجغرافيين العرب أمثال الاصطخري وابن فردازيه وابن حوقل ، وتتبع السماء وجغرافيتها في الأبراج كما وردت عند المؤلفين العرب كاليقوبي والبيروني . بعد تلك الفصول السبعة السالفة التي رسمت كرة الولاية بخطوط طولها وعرضها يصل لبحث موضوع ختم الولاية أو أختام الولاية على صيغة الجمع ، ويرى أن الولاية بحسب نصوص ابن عربي ، وبعد المتابعة التاريخية ، مثلثة الختم .

ان عبارة ختم الولاية لم ترد في قرآن أو حديث ، ولكن لما كان العلماء هم الأولياء عند ابن عربي وهم ورثة الأنبياء ، ولما كانت النبوة ختمت بشخص سيدنا محمد ( ﷺ ) ينشأ عن ذلك أن تختم الولاية بشخص الختم . والترمذي في القرن الثالث الهجري هو أول من وصل الى هذه النتيجة ، ولكن تصوصه تشير ولا توضح ، يطرح السؤال ولا يجيب . . . والسؤال رقم ١٣ في أسئلة الترمذي ، يقول : ومن الذي يستحق خاتم الأولياء كما يستحق محمد ( ﷺ ) خاتم النبوة ؟ يقول ابن عربي في الجواب « الختم ختمان ، ختم يختم الله به الولاية ، وختم يختم الله به الولاية المحمدية ، فأما ختم الولاية على الاطلاق فهو عيسى عليه السلام فهو الولي بالنبوة المطلقة في زمان هذه الأمة ، وقد حيل بينه وبين نبوة التشريع والرسالة ، فينزل في آخر الزمان وارثاً خاتماً ولي بعده بنبوة مطلقة . . . أما ختم الولاية المحمدية فهي لرجل من العرب ، موجود في زمان ابن عربي ، وكما ختم الله عز وجل بمحمد ﷺ نبوة الشرائع كذلك ختم الله بالختم المحمدي الولاية التي تحصل من الورث المحمدي لا التي تحصل من سائر الأنبياء ، وذلك لأنه من الأولياء من يرث ابراهيم أو عيسى أو موسى ، فهؤلاء يوجدون بعد هذا الختم المحمدي ، ولكن لا يوجد بعده ولي على قلب أو على قدم محمد ﷺ بمعنى لا يوجد ولي يرث كامل الارث المحمدي .

وهكذا تتوضع الرؤية فختم الولاية المحمدية هو شخص لم يتحدد بشكل قاطع عند ابن عربي ، وهو الذي لا يوجد بعده ولي على قلب محمد ﷺ ، وختم الولاية العامة ، الذي هو عيسى ، والذي لا يوجد بعده ولي مطلقاً .

ثم يتابع شودكوفيتش خطأ ابن عربي مستوضحاً العلاقة بين ختم الولاية العامة وبين ختم الولاية المحمدية من ناحية ، ثم بين خاتم الأنبياء وبين ختم الولاية المحمدية من ناحية ثانية ليخلص الى القول بأن محمد ﷺ هو ظاهراً خاتم الأنبياء ، وهو أيضاً من حيث الباطن خاتم الولاية العامة والولاية المحمدية ، وظهور ختمية نبوته وبطون ختمية ولايته تجد تفسيرها في أن نبوته ﷺ ظاهرة فظهرت بالتالي ختميته لها ، وان ولايته ﷺ باطنية فبطنت بالتالي ختميته للولاية .

ثم ينتقل شودكوفيتش للكلام على ختم ثالث يشارك ختمي الولاية المحمدية والولاية العامة في عنوان هذا الفصل : « الأختام الثلاثة » . . . والخاتم الثالث أو الختم الثالث لم يذكره ابن عربي الا مرة واحدة وهو « ختم الأولاد » يقول ابن عربي : على قدم شيث يكون آخر مولود من هذا النوع الانساني ، وهو حامل أسراره ، وليس بعده ولد في هذا النوع . فهو خاتم الأولاد . وتولد معه أخته فتخرج قبله ويخرج بعدها يكون رأسه عند رجلها ، ويكون مولده بالصين ولغته لغة أهل بلده ، ويسري العقم في الرجال والنساء ، يكثر النكاح من غير ولادة . هذا الخاتم يدعو الناس الى الله فلا يجاب . فإذا قبضه الله تعالى وقبض مؤمني زمانه بقي من بقي مثل البهائم ولا يحلون حلالاً ، ولا يحرمون حرماً ، يتصرفون بحكم الطبيعة شهوة مجردة عن العقل والشرع ، وعلى هؤلاء الناس تقوم الساعة .

ويعلق شودكوفيتش بأن عبارة « على قدم شيث » التي تميز خلق خاتم الأولاد تشير بما نفهمه من لغة ابن عربي الى أن خاتم الأولاد هو من الأولياء وهو أيضاً ولي شيثي ولن يخلق بعده أي رجل ، وبالتالي أي ولي فيختم اذن هو أيضاً الولاية ، ويتساءل شودكوفيتش كيف هنا نستطيع أن نوافق بينه وبين عيسى الذي يختم الولاية العامة ؟ وتظل القضية معلقة يرجع اليها عند بحثه لختم الولاية المحمدية الذي يفرد له الفصل التالي ، ولكن شودكوفيتش لا يعطينا جواباً عن هوية خاتم الأولاد كما لم تعطنا أي جواب كل النصوص القديمة والشروحات التي تناولت فصوص الحكم بالبحث والدراسة ، وكل الأسماء الكبيرة أمثال القونوي ، بالي أفندي ، القاشاني ، النابلسي ، القيصري .

وأرى هنا أن النص الوحيد الذي نمتلكه لخاتم الأولاد والذي تضاربت حوله الشروحات فرأى البعض انه هو خاتم الولاية العامة الذي قيل عنه انه عيسى ، ورأى البعض انه مجرد ولد يولد في آخر الزمان ، ورأى البعض أن العبارة بجملتها رمزية وخاتم الأولاد هو القلب وأخته هي النفس وهكذا . . . وعلى الرغم من أن ابن عربي لم يوضح ويبين ماهية هذا الختم أسوة بالأختام الثلاثة : ختم النبوة ، وختم الولاية العامة ، وختم الولاية المحمدية ، إلا أنه يمكنني استناداً الى النصوص أن أرى بوضوح في عالم ابن عربي من هو هذا الختم .

أبدأ بمقدمة أولى وهي : أن ابن عربي يرى ( الفتوحات ٥٠/٢ ) ان لكل شيء من الدنيا ختماً ، وذلك لأنه لما كان للدنيا بدء ونهاية وهو ختمها ، فقد قضى الله سبحانه أن يكون جميع ما فيها بحسب نفسها له بدء وختام ، وكان من جملة ما فيها تنزيل الشرائع فختم الله هذا التنزيل بشرع محمد ﷺ ، وكان من جملة ما فيها الولاية العامة وهكذا . . .

ثم في مقدمة ثانية يرى ابن عربي أن بيت النوع الانساني هو الدين ، وان أركان بيت الدين أربعة وهي : الرسالة والنبوة والولاية والايمان ، وقد كشف ابن عربي عن أوتاد أربعة هم أركان الدين ، وهم الأنبياء والأحياء بأجسامهم بعد انتقال نبينا محمد ﷺ ، وهم ادريس وعيسى والياس والخضر . . . ( وقد سبق الكلام على هذا الموضوع عند عرض الفصل السابع من هذا الكتاب ) من هاتين المقدمتين أستطيع أن أخلص نتائج واضحة توصلنا لتحديد هوية ختم الأولاد : النتيجة الأولى ، حيث ان لكل شيء في الدنيا ختماً ، وان « الايمان » من جملة ما فيها لذلك يختم الايمان بختم تماماً كالنبوة والولاية .

والنتيجة الثانية ، ان أركان بيت الدين الأربعة وهي : الرسالة والنبوة والولاية والايمان ، وان كانت تحفظ في الدنيا بأركانها الأربعة وهم الأوتاد الأربعة ، إلا أن ذلك لم يمنع ابن عربي من أن يرى ختماً لكل ركن ، فالنبي عليه الصلاة والسلام هو خاتم الركنين الأولين ، أي خاتم الرسالة والنبوة ، والركن الثالث أي الولاية له ختمان : تختم الولاية العامة بعيسى عليه السلام ، وتختم الولاية المحمدية بشخص لم تقطع به النصوص ويكون آخر الورثة المحمديين الكاملين .

ونلاحظ أن الركن الرابع لبيت الدين وهو الايمان قد ظل دون ختم ، فأين خاتم الايمان الذي أشار اليه ابن عربي ؟ وإذا دققنا النظر في صفات خاتم الأولاد الذي أشار

اليه ابن عربي نرى انه ينطبق تماماً ليكون رابع الأختام وتكتمل به فكرة الختمية ، لأن كمال التكوين في كل شيء يقوم على الترتيب عند ابن عربي . فخاتم الأولاد بنص ابن عربي يدعو الى الايمان وما من مهتد ولا مؤمن بعده ، فارتباط اسمه باسم الايمان ، ثم كلمة خاتم امام اسمه كل ذلك يدعو لأن أملا به مكان « ختم الايمان » الذي ظل شاغراً في بنية ابن عربي وفي رؤيته للولاية وأختامها .

أما عبارة « على قدم شيث » فيفسرها كون شيث ابن آدم هو أول أولاد الجنس البشري الموجود عن التزاوج ، وبخاتم الأولاد يختم الجنس البشري الموجود عن التزاوج ، لأنه بعد هذا الخاتم يسري العقم في الرجال والنساء ، يكثر النكاح من غير ولادة .

يبقى أن نسأل أنفسنا ، هل خاتم الأولاد هو ولي من الأولياء فان كان ولياً فكيف يولد ولي وقد ختمت الولاية بعيسى ، وعيسى عليه السلام يظهر قبله في الزمان ومن ثم طرح هذا مشكلة عند مفسري الفصوص ، وحاول الكل أن يجد علاقة ونسبة بين عيسى عليه السلام وبين خاتم الأولاد . وأرى هنا أن الحل يأتي من القرآن الكريم ، ومن الفصل الأول الذي طرح فيه شوكوفيتش أن الولاية اسم مشترك فنقول ان الولي اسم مشترك يطلق على النخبة الروحية التي طهرها الله عز وجل وأنزلها في منازل قربه وحملها الأمانات ، فخاتم الأولاد هو خاتم الايمان فلا مؤمن بعده ، وهو ولي ولكن بالمعنى العام للولاية أي الايمان .

## الفصل التاسع

( ختم الولاية المحمدية ص ص ١٥٩-١٧٩ )

يترك شوكوفيتش في هذا الفصل مهمة ووظيفة ختم الولاية ويهتم بشخص هذا الختم ، فان كان ختم الولاية العامة تحدد قطعاً في نصوص ابن عربي بشخص عيسى عليه السلام ، فان شخص ختم الولاية المحمدية وردت الاشارة اليه مراراً ولكن في كل مرة كان يذهب التعيين الى شخص مختلف ، مما أوقع المتتبع للنص في حيرة ، فأحياناً يقول ابن عربي انه التقى بشخص في فاس وهو ختم الولاية المحمدية ، وأحياناً يقول عن نفسه انه هو ختم الولاية المحمدية ويورد مبشرات تهادت اليه في رؤية منامية ، ويؤكد بعد وصوله الى المشرق انه هو ختم الولاية المحمدية .

ثم يستعرض الأستاذ شوكوفيتش مؤلفات الصوفية وخاصة مؤلفات مؤيدي ابن عربي وتلامذته فيرى أن الشمراني في الطبقات يشير عند ترجمته للصوفي الكبير محمد وفا ( ت ٨٠١ هـ ) ان ابنه علي وفا يقول عن والده انه ختم الأولياء ، وهذا ما حدث في معظم الطرق الصوفية اذ كانت تظهر رجالاً كباراً على أنهم « ختم الأولياء » ، فكل جمع تجمع حول ولي كبير من أولياء الصوفية المتأخرين رأى فيه ملامح الختم المحمدي . وتلامذة ابن عربي كذلك يؤكدون انه هو نفسه خاتم الولاية المحمدية . ويكثر الجدل

حول شخص الختم ، ويخرج الأستاذ شودكوفيتش من هذا المازق بالالتفات الى مفهوم النيابة عند ابن عربي ، ويثبت أن شخص خاتم الولاية المحمدية هو ابن عربي ، بما يحويه من وظائف الختم ، وأن كل طائفة ادعت لوليها مقام الختم فهي انما ترى نائب الختم المحمدي ، ترى على صفحة ولايته القمرية انعكاس صفات ولاية الختم الشمسية .

### الفصل العاشر وهو الأخير

( السلم المزدوج ١٨١ - ٢٢١ )

يلخص شودكوفيتش في مطلع هذا الفصل وفي فقرة واحدة خلاصة نظرية ابن عربي الى الولاية ويرى أنها انتظمت على مفاهيم ثلاثة: الوراثة - النيابة - القرية . فالوراثة لأحد الأنماط النبوية في معرفة الله عز وجل تفسر أشكال الولاية وسبب وجودها على أنماط متنوعة والنيابة التي هي نيابة الولي في وظيفة ترجع في الواقع الى الحقيقة المحمدية وتفسر مهام ووظائف الولاية ، وأخيراً القرية ، وهي حقيقة الولاية ومعناها . . وهذه القرية التي سبق الكلام عليها عند كلامنا على الدرجة العليا للولاية سوف تظهر لنا هنا بكامل تفتحها .

ونلاحظ نحن هنا ان الأستاذ شودكوفيتش بعد أن شرح في الفصول التسعة المتقدمة من كتابه معنى الولاية لغوياً ، ثم بين طبيعتها وأشكالها ووظيفتها ، ثم منازل الأولياء وتوزعهم على أبعاد الأرض والسماء ، يصل هنا الى نهاية المطاف لرسم للمقارء طريق الولاية . . وان الولاية ، التي انتشأت صورها من فقرات فصوله ، وان كانت وادياً مقدساً الا أن هذا الوادي ليس محظوراً على السالكين ، فالطريق مفتوح لمن أراد أن يحمل زاده ويرحل . يرحل عن الكون الى الله ، وبعد أن يقطع مسافات في أرض الوجدان ، يعرف ان الولي هو القريب من الله ، القريب من الانسان ، وهذا ما سينتهي اليه شودكوفيتش في تتبعه لنصوص الشيخ الأكبر . .

كيف نصبح أولياء ؟ الولاية قبل كل شيء هي تجربة فردية ومجهود شخصي وهي دائماً غير مسبقة بمثال ، وهذا ما يؤكد عليه ابن عربي دائماً ، فلا تتكرر تجربة أبداً ، ولا يسلك سالك أبداً طريق سالك آخر ، ولا يمر سالكان بطريق واحد .

وهذه الفردية في الطرق الموصلة الى القرب والولاية ، لا تمنع من وجود أنماط طرائقية يجمع كل نمط منها مقاماته ومخاطره . وهذا ما يبرر وجود الشيخ المرشد الرببي ، أي « المعلم الروحي » الخبير بأنماط طرائق المجاهدات ، ومن ناحية ثانية ، يظهر المعراج النبوي على أنه القدوة والمثال لكل طريق ، وكل عروج وترق يطمح الى تقرب وولاية يرقى في هذه المعارج وهذا ما سيتضح كما يقول شودكوفيتش - عند بحث مقامات القرب عند ابن عربي .

ياخذ شودكوفيتش كتاب ابن عربي « رسالة الأنوار » ويحاول استناداً اليه ، والى كتاب « الاسرا الى المقام الأسرى » ، والى فصل من الفتوحات أن يخط طريقاً للولاية . . و

يؤكد شوكوفيتش على ضرورة أن يصل الولي الى تمام الولاية ، فهو يرى - استناداً الى النصوص ان الولي الكامل هو الذي سلك الى رب العزة ووصل الى حضرته تعالى ورجع به من عنده الى خلقه من غير مفارقتة . وبكلام آخر الولي الكامل هو الواصل الى الحق ، الراجع الى الخلق .

يبدأ شوكوفيتش ببيان الطريق للسالك ، منذ بداياته كما فصله ابن عربي في رسالة الأنوار حيث يقول لسائله : « فأول ما أبينه لك كيفية السلوك الى الله ، ثم كيفية الوصول والوقوف بين يديه والجلوس في بساط مشاهدته ، وما يقوله لك ، وكيفية الرجوع من عنده الى حضرة أفعاله به واليه ، والاستهلاك فيه ، وهو مقام دون الرجوع » . ثم يقول : « واعلم أيها الأخ الكريم ان الطرق شتى والطريق الموصل الى الحق هو مفرد ، وأفراد هم الذين يسلكون طريق الحق . ومع ان طريق الحق واحد فان وجوهه تختلف بحسب اختلاف سالكيه من اعتدال المزاج أو انحرافه ، ومن قوة الروحانية وضعفها ، أو استقامة الهمة وميلها ، فمن السالكين من تجتمع له هذه الأوصاف ، ومنهم من يكون له بعضها ، فقد يكون مطلب الروحانية شريفاً ولكن لايساعده المزاج ، وهكذا في كل ما بقي . وأول ما يبدأ به ابن عربي هو تعريف السالك بأمهات المواطن ، أي يعرفه من أين جاء ، وأين هو ، والى أين يذهب ، حتى يعرف السالك ما يقتضيه كل موطن فيستعد لمعاملة الموطن الذي هو فيه بما يتناسب ويليق . »

ويقول ابن عربي للسالك منبهاً : ينبغي لك أن تعرف ما يريدك الحق منك في ذلك الموطن فتبادر اليه من غير تثبيط ولاكلفة ، والمواطن ترجع الى ستة : الأول ، هو موطن « ألت بربكم » ، والموطن الثاني هو الدنيا التي نحن الآن فيها ، والثالث هو عالم البرزخ الذي نصير اليه بعد الموت الأصغر أي الموت السلوكي - والموت الأكبر أي موت البدن وانتقاله ، والموطن الرابع هو أرض الحشر ، والموطن الخامس هو الجنة والنار ، والسادس هو موطن الكتيب خارج الجنة وهوتل من مسك أبيض تكون الخلائق عليه عند رؤية الحق سبحانه وتعالى .

وبيان ابن عربي لهذه المواطن الستة التي ينزلها كل كائن تسهم - على ما يقول شوكوفيتش - بتنبيه السالك الى مخاطر الطريق الصوفي ، فكل عاقل كما يقول ابن عربي عليه أن يعلم ان السفر مبني على المشقة والمحن والبلايا والأخطار والأهوال ، وانه من المحال أن يتنعم المسافر أو يستريح أو يلتذ وانه عليه أيضاً أن لا يستعجل المشاهدة والفتح بل يعمل على تحصيل العلم ، لأن الوقت في هذه الدنيا يجب أن يخصص لتحصيل العلوم الروحية استعداداً ليوم البعث حيث يتجلى الله عز وجل فيه لكل انسان في صورة عقيدته .

وبعد أن يشرح ابن عربي للسالك المواطن ، وينبئه على المخاطر وعدم طلب المشاهدة ، ويدعوه للالتفات الى العلم ، يعطيه بعض القواعد التطبيقية التي تساعد في طريقه الى الله . يقول له : « لا بد لك من العزلة عن الناس وإيثار الخلوة على الصحبة . »



فانه على قدر بعدك من الخلق يكون قربك من الحق ظاهراً وباطناً . وأول ما يجب عليك طلب العلم الذي تقيم به طهارتك وصلاتك وصيامك وتقواك ، وما يفرض عليك طلبه خاصة لا تزيد على ذلك شيئاً . وهذا هو أول باب الطريق والسلوك ، ويأتي بعده العمل به ، ثم الورع ، ثم الزهد ، ثم التوكل . وفي أول حال من أحوال التوكل يحصل لك أربع درجة التوكل ، وهي : طي الأرض ، والمشى كرامات هي الدليل على حصولك في أول على الماء ، واختراق الهواء ، والأكل من الكون ، ثم بعد ذلك تتوالى عليك المقامات والأحوال والكرامات والتنزلات الى الموت » .

ويرافق ابن عربي السالك معه على طريق الحضرة ، فان حقق شروط الخلوة وتحفظ من الخيالات الفاسدة واشتغل بذكر الله ، وراعى اعتدال المزاج وفرق بين الواردات الروحانية الملكية والواردات الروحانية النارية الشيطانية ، وحفظ عقيدته في الله عند دخوله الخلوة بأن الله ليس كمثله شيء ، ولم يطلب في الخلوة من الله سواه ، ولم يعلق وله الهمة بغيره . . اذا حقق السالك كل ذلك فان الله عز وجل يبتليه بأشياء يفتنه فيها فعليه أن لا يقف مع شيء . . ومن الأشياء التي يعرضها الله على السالك ابتلاء أن يكشف له عن العالم الحسي الغائب عنه ، فلا تحجبه الجدران والظلمات عما يفعله الخلق في بيوتهم ، ثم ينتقل من الكشف الحسي الى الكشف الخيالي وتنزل عليه المعاني العقلية بالصور الحسية ، ثم تكشف له أسرار الأحجار المعدنية فيعرف سر كل حجر وخاصيته في المضار والمنافع ، ويكشف له عن النباتات وتناديه كل عشبة بما تحمله من خواص المضار والمنافع ، ويرفع له عن الحيوانات فتسلم عليه وتعرفه بما تحمله من الخواص ، وهكذا كل عالم يعرف السالك بتحميده وتسميحه .

ثم يداخل شوكوفيتش بين رسالة الأنوار وبين الفتوحات المكية ليخرج منهما برؤية مكتملة للطريق الصوفي ، فالسالك حين يقطع هذه الممالك الأربعة من العالم الحسي : مملكة المعادن والنبات والحيوان والانسان المتمثل بالسالك نفسه ، يوازي المرحلة الأولى من المعراج ، هذه المرحلة التي توصل الى السماء الأولى . . وهكذا كل مرحلة من مراحل رسالة الأنوار يمكن مقارنتها ومقابلتها بمراحل السموات السبع التي يرقاها السالك في المعراج الوارد في الفتوحات المكية ، فالعارج في الفتوحات لا يصل الى السماء الأولى الا بعد أن يتحلل ويترك مركبات تكوينه ، يترك ماءه وترابه وناره وهواه ، كذلك هنا أول ما يكشف له عن عوالم المعادن والنبات والحيوان فان لم يجتزمها ووقف مع أي عالم منها فانه يقطع عليه الطريق . فاجتياز العوالم ومفاتها في رسالة الأنوار يقابل تحلل السالك من مركبات تكوينه في الفتوحات . . ويتابع شوكوفيتش المداخلة بين الفتوحات وبين رسالة الأنوار ، كشفًا بكشف ، وسما بسما ، حتى ينتهي الى نهاية العروج الانساني وهنا الانسان في نهاية معراجه لا يبقى منه الا السر الالهي الذي لا يتحلل ولا ينقسم ، هذا السر المنفوخ منذ بداية الخليقة في طينة آدم .

واذا كان الوصول الى الله هو نقطة النهاية في سلم العروج فهو ليس نهاية الطريق بل الوصول الكامل يتجسد في سلم مزدوج... عندما يصل الولي الى القمة عليه أن يرجع درجة درجة ، ولكن هنا لا يرجع على نفس الدرجات التي صعد عليها ، فالسالك أو الولي يصعد وهو يرى بعين نفسه ويرجع وهو يرى بعين ربه .

وكما تحلل السالك من كل أثوابه قبل عروجه فترك ماءه وترابه وناره وهواه حتى بقي سراً الهياً صرفاً غير ممزوج ، نراه عند رجوعه يلبس أثوابه واحداً واحداً يتركب حتى يعود الى العالم المركب ، ولكن التحليل والتركيب هما سلم مزدوج يصعد فيه السالك بدرجات وينزل بدرجات مقابلة ، كأنها هي وليست هي . . . ويعود السالك ، يرجع الولي ، من الوصول كأنه هو .

فالولاية على حد ما يعرفها شوكوفيتش مراراً في هذا الكتاب هي قرب ولكنه قرب مزدوج : قرب من الله وقرب من الناس ، فإذا كان الانسان الكامل شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، والحقيقة المحمدية برزخا بين الحق والخلق ، فالولي وريث يجمع الأعلى والأسفل . وينتهي شوكوفيتش كتابه بأن الولاية وإن حملها الولي معه الى ما بعد الدنيا إلا انه لها نهاية وختم في هذه الدنيا ، فمع مجيء الختم الأول أصبحت أشكالها العليا والكاملة ممنوعة الى الأبد ، ومع مجيء الختم الثاني أقفل نهائياً مقام القربة وهو أعلى مقامات القرب ، وعندما يقبض الله روح الختم الثالث الذي هو آخر مولود من الجنس البشري وتصبح الناس كالبهائم ويمحى القرآن والعلم من القلوب . . . يصبح عالمنا فارغاً عن كل ما يربط الأرض بالسماء ، عالم "بارد" يفرق في الموت : نهاية الأولياء ليست إلا اسم آخر لنهاية العالم .

وقبل أن نطوي صفحات الولاية ، أقول ان الولاية مسؤولية . . يرث الولي هموم الناس ، واقع أمة ومجتمع وبيئة . . يقتلع وجدانه من أماكن القرب ويصبرها في أرض الوقت ، ليكون وجهه في كل زمن شاهداً على الكمال المتروك . . الولي قبضة تنورت من أثر الرسول وارتدت إلينا ، فتعلقت بذراتها أرواحنا المسوأة .

د . سعاد الحكيم

استاذة التصوف في الجامعة اللبنانية

★ ★ ★